

مُفْتَمَةٌ

اللُّغة أَعْرَقُ مَظَاهِرَ الحِضَارَةِ الإنْسَانِيَّةِ وَالْوَسِيلَةَ المُتَلَى لِلتَّوَاصُلِ البَشَرِيِّ، وَلا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بُلُوغَ حَاجَتِهِ بِنَفْسِهِ، لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ حُضُورَ العِنِصْرِ اللُّغَوِيِّ فِي تَعَايِشِ النَّاسِ وَتَعَامُلِهِمْ، فَكَانَتِ اللُّغَةُ أَدَاةَ إِفْصَاحِ كُلِّ فَرِدٍ عَنِ غَرَضِهِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَى الآخَرِينَ فَيَحْصُلُ الفَهْمُ وَالإِفْهَامُ الَّذِي هُوَ غَايَةُ اللُّغَةِ وَمَقْصُودُهَا.

وَلَمَّا لَمْ يُجَدِ البَحْثُ فِي سِرِّ أَصْلِ اللُّغَةِ وَنَشَأَتِهَا نَفْعًا، انصَرَفَ العُلَمَاءُ وَاللُّغَوِيُّونَ إِلَيْهَا فِي ذَاتِهَا يُحَلِّلُونَهَا وَيَكْشِفُونَ عَمَّا تُوَدِّي مِنَ وَظَائِفٍ، وَمَا تَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ أَغْرَاضٍ وَمَقَاصِدٍ وَمَا تُحَقِّقُهُ مِنْ فَوَائِدٍ تَعْطِي العَمَلِيَّةَ التَّوَاصُلِيَّةَ قِيَمَتَهَا، فَنَشَأَتِ اللُّسَانِيَّاتُ الَّتِي انْتَشَرَتْ وَأَقَامَتْ وَشَائِحَ قُرْبَى مَعَ العَدِيدِ مِنَ العُلُومِ الإنْسَانِيَّةِ، فَكَانَتِ لَهَا فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ: كَاللُّسَانِيَّاتِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَاللُّسَانِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَاللُّسَانِيَّاتِ التَّدَاوُلِيَّةِ، الَّتِي تُعَدُّ أَحَدَ مَنَاهِجِ البَحْثِ اللُّسَانِيِّ.

اتَّخَذَتِ اللُّسَانِيَّاتُ التَّدَاوُلِيَّةُ اللُّغَةَ مَوْضُوعًا لَهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكْتَفِ بِوَصْفِ وَتَفْسِيرِ البَنَى اللُّغَوِيَّةِ الشَّكْلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ، كَمَا دَرَجَتِ عَلَى ذَلِكَ اللُّسَانِيَّاتِ الوَصْفِيَّةِ بَلِ امْتَدَّتْ لِتَدْرُسَ الظَّوَاهِرَ اللُّغَوِيَّةَ أَثْنَاءَ الإِسْتِعْمَالِ، فَتَهْتَمُّ بِالجَانِبِ الحَيِّ فِيهَا، وَهُوَ الكَلَامُ.

وَقَدْ آمَنَتِ اللُّسَانِيَّاتُ التَّدَاوُلِيَّةُ أَنَّ وَظَائِفَ اللُّغَةِ مُتَعَدِّدَةٌ إِلاَّ أَنَّ أَهْمَهَا الوَظِيفَةُ التَّفَاعُلِيَّةُ الَّتِي يَقِيمُ بِهَا النَّاسُ عِلَاقَاتِهِمُ الإِجْتِمَاعِيَّةَ، وَيُحَقِّقُونَ بِهَا غَايَاتِهِمْ مِنْ مَعَامَلَاتٍ يَوْمِيَّةٍ، وَيَكْمُنُ دَوْرُهَا الرَّئِيسُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ مَقَاصِدِ المُتَكَلِّمِ وَنَوَايَاهُ وَإِبْلَاحِ السَّمَاعِ مَا يُثْرِي رَصِيدَهُ المَعْلُومَاتِي، فَتُوَدِّي بِذَلِكَ وَظِيفَةً تَدَاوُلِيَّةً، تَتَفَاوَتُ بِحَسَبِ القَصْدِ الَّذِي يَوْمُهُ المُتَكَلِّمُ وَالمَهْدَفِ الَّذِي يَسُوقُ خُطَابَهُ مِنْ أَجْلِهِ، وَتَتَنَوَّعُ مَقَاصِدُ المُتَكَلِّمِ بِتَنَوُّعِ العِنَاصِرِ السِّيَاقِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَرَاعِيهَا أَثْنَاءَ التَّخَاطُبِ حَتَّى يَجْنِي السَّمَاعُ مِنْ كَلَامِهِ فَائِدَةً.

وَفِي هَذَا الفَلَكِ التَّدَاوُلِيِّ جَاءَ هَذَا البَحْثُ المَوْسُومُ بِ"الإِفَادَاتِ وَالمَقَاصِدِ التَّبْلِيغِيَّةِ فِي النُّحُوِّ العَرَبِيِّ مِنْ مَنظُورِ اللُّسَانِيَّاتِ التَّدَاوُلِيَّةِ" مَحُورًا لِلدِّرَاسَةِ، وَالَّذِي حَاولَتْ فِيهِ أَنْ تُتَبَّعَ مَبْدَأِي الإِفَادَةِ وَالمَقْصِدِ فِي اللُّسَانِيَّاتِ التَّدَاوُلِيَّةِ العَرَبِيَّةِ عَلَى يَدِ مَنظَرِيهَا الأَوَائِلِ "غَرَايسُ" (H.P.Grice و"أوسْتِين" (J.Austin) و"سِيرْل" (J.L.Searle)، ابْتِدَاءً مِنْ ظُهُورِ نَظَرِيَّةِ الأَفْعَالِ

الكلامية عند "أوستين" ،ثم تطورها على يد تلميذه "سيرل" الذي كان محط اهتمامه في البداية تحليل قصدية الأفعال العقلية وتمثل العقل للأشياء الموجودة في العالم الخارجي دون انفلات تام عن الوعي ،ثم انتقل "سيرل" بالقصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة مبيّنا كيفية إعطاء المتكلم كلامه المعنى الذي يحسن السكوت عليه وتقبّله .

والكلام الحسن المسكوت عليه كان أحد موضوعات النحو العربيّ الذي حاولت أن أثبت من خلالها أن النحو العربي اهتم بقصد المتكلم وفائدة الخطاب التي يجنيها السامع وراء كل عملية تواصلية ،وأن تحليلاتهم النحوية لم تكن بمنأى عن هذين المبدئين التداوليين .

وفي ضوء هذا تطرح الإشكالات التالية :ما طبيعة التداولية؟ وما موضوعها؟ وما هي أهدافها ؟ وكيف نشأت ؟ ما المقصود بمبدئي الإفادة والمقصد الإبلاغي في المنظور التداولي؟ وكيف انتقلت القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة على يد "سيرل" ؟ وهل للتداولية جذور في تراثنا العربيّ عامّة والنحو منه بصفة خاصّة؟ ماهي طبيعة وكيفية التحليل الذي قدّمه النحاة للعديد من الأساليب اللغوية في العربية وكيف يمكن إبراز البعد التداولي فيها ؟ كيف يمكن استثمار المبدئين السابقين في تفسير العديد من الأساليب النحوية العربية؟ وما تطبيقاتها فيه؟ .

وكان وراء اختياري هذا الحقل المعرفي ليكون موضوعا للبحث أسباب عديدة لعل أهمها

:

1 _ ولوجي الحقل التداولي باعتباره أحدث مناهج البحث اللساني فأتعرف أصوله وجذوره وأبعاده التي يمكن تطبيقها على النحو العربيّ.

2 _ رغبتني في الاطلاع على الموروث العربيّ باختلاف مشاربه وربطه بالدراسات الحديثة، وخاصة النحو العربيّ الذي يعكس الكثير من فلسفة التفكير اللغوي في أسمى صورته.

3_ اعتقاد الكثير من الدارسين أنّ النحو العربيّ كان نحوًا شكليًا خالصًا، وأنّ النحاة العرب في تحليلهم للجملة لم يهتموا بعناصر العملية التواصلية فأهملوا قصدية المتكلم وفائدة الخطاب ،وفهم السامع وإدراكاته المختلفة ،والعلاقة التي تربط هذه العناصر الثلاثة .

4- محاولتي الإسهام في تبيان استجابة اللّغة العربيّة عامّة، والنّحو العربيّ خاصّة للنظريات الغربية، والتأكيد على أنّ النّحاة العرب أثناء وضعهم القواعد النّحوية قد راعوا قصد المتكلّم والفائدة الّتي يحصل عليها المتخاطب أثناء عملية التّخاطب، وأنّ النّحو العربيّ يعتمد في الكثير من أساليبه اللّغوية المختلفة على تحقيق الكثير من فلسفة اللّسانيات التداولية.

وقد سبق البحث في هيكل تنظيمي قوامه مقدّمة مرفقة بمدخل فثلاثة فصول وخاتمة، أمّا المدخل فقسمته إلى مبحثين مبحث تاريخيّ تحدّث فيه عن الدراسات اللّسانية الّتي سبقت ظهور اللّسانيات التداولية حتى يتجلّى الظرف الذي ولد فيه هذا الفرع اللّساني، ومبحث اصطلاحي يعرّف أهمّ المصطلحات التداولية وما تحمل من مفاهيم، أمّا الفصل الأوّل فتناول الأصول الفلسفية واللّسانية للّسانيات التداولية وتوزّع على قسمين اثنين: الأوّل تطرّق إلى الأصول الفلسفية واللّسانية للنظرية التداولية عند العلماء الغربيين بدءًا بالفلسفة التحليلية عند فلاسفة اللّغة العاديّة ثمّ السيميائيات الحديثة، وأخيرًا تصوّر أوستين وسييرل في نظرية أفعال الكلام، والجزء الثاني بحث الملامح التداولية في الموروث اللّغوي العربيّ عند علماء البلاغة و الأصول خاصّة.

أمّا الفصل الثاني فاهتمّ بالنظرية القصديّة كما هي في اللّسانيات الغربية وتحديد مفاهيمها، كتعريف مصطلح القصديّة وتتبع أصله، ثمّ طبيعة القصديّة وبنيتها والعلاقة بينها وبين الوعي، ثمّ قصديّة الفعل الكلامي، أو اللّغة بصفة عامّة وتكوّن المعنى لدى المتكلّمين.

والفصل الثالث تناول المبادئ التداولية في النّحو العربيّ مع التركيز على مبدأي الإفادة والقصد من خلال التطرّق إلى بعض القضايا النّحوية الّتي عمل النّحاة على تحليلها كالنّقد والتأخير والتّعيين (التعريف والتّكثير) والحذف و الزّيادة والتّخصيص...

و في الأخير تأتي الخاتمة الّتي تعدّ بمثابة تسجيل لأهمّ النتائج الّتي توصل إليها البحث.

و قد انكأ البحث في عرض مادته على المنهج التحليلي التقابلي، والذي يمكن من خلاله تحليل الظاهرة اللّغوية وإبراز تفضنّ العلماء العرب إلى ما لقصد المتكلّم من دور في إعطاء

الخطاب قيمة تواصلية، وهي ما يسمّى في المنظور الغربي بمبدأ الإفادة ، ومقارنة ذلك بما توصلت إليه اللسانيات التداولية الحديثة واستخلاص نقاط التقاطع والالتقاء.

ومادامت سنّة الحياة في رحلتها قصيرة كانت أو طويلة تقتضي أن يتيسّر شيء ويتعسّر آخر، فإن لهذا البحث أيضا صعوبات لعلّ أهمّها؛ ندرة المراجع في اللسانيات التداولية عامّة وفي النظرية القصديّة خاصّة، وصعوبة الحصول على القليل الموجود منها ثمّ قلّة البحوث التي تتناول الموروث النحوي العربيّ من منظور تداولي.

وقد اعتمدت في هذا البحث على مصادر ومراجع أهمّها: الكتاب لسبويه، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، الخصائص لابن جني، فلسفة العقل لجون سيرل، نظرية أفعال الكلام العامّة لأوستين، المقاربة التداولية لفرانسواز أرمينيكو، العقل مدخل موجز لسيرل، التداولية عند العلماء العرب لمسعود صحراوي، الوظائف التداولية في اللّغة العربية لأحمد المتوكل... إلخ.

وفي الأخير لا يسعني إلاّ أن أتوجّه بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور "محمد خان" فله منّي جزيل الشكر ووافر الامتنان على المجهودات التي بذلها لقراءة المذكرة وتصحيحها وتقويمها برأيه السديد، فجزاه الله خير الجزاء وما توفيقي إلاّ بالله و به نستعين.